العالم يتطلع الى حدودنا المصرية

أربعون يوما
فى الصحراء الغربية
للأستاذ عبد الله حبيب

— ٣ —

تحدث المحرر فى المقالين السابقين عن بعض مشاهداته فى الصحراء الغربية فوصف سحر الصحراء ، وأتى فى كلتا وجيزة على ذكر كثير من عادات العرب وصفاتهم ، وتحدث عن حكامها ودون عنها معلومات عامة طريفة . وهو فى هذا المقال يتحدث إلى القراء عن ساحل الصحراء الغربية وخطوط الأمطار وموارد المياه على الساحل وسكة حديد مرسى مطروح الحديدية وسكان الساحل وقبائل الصحراء الغربية حديثا شائقا طريفا

ساحل الصحراء الغربية

يمتد القسم الساحلى من الصحراء الغربية — وليس له اسم معين معروف — من الشمال الغربى للدلتا من الإسكندرية شرقاً إلى السلوم غرباً ؛ ويبلغ طوله نحو ٥٠٠ كيلو متر

وقد أطلق عليه القرطاجنيون اسم « ساحل ليبيا » وورد ذكره فى كتابات هيرودوت عند وصف رحلات الفينيقيين والقرطاجنيين إذ وصف سكان هذا القسم بما لا يخرج عن حالتهم فى الوقت الحاضر وطرق معيشتهم بعد الفتح الإسلامى . قال : إنهم يرتدون ملابس اللوبيين ، وتتخذ النساء خلاخيل فى أرجلهن ويرسلن شعورهن تنمو وتطول ؛ ومن عاداتهم أن للزواج وقتاً معيناً ، وهو عندهم عيد عظيم ، إذ تحضر القبائل — عند افتتاح موسمه — أجمل الفتيات الراغبات فى الزواج فيقفن أمام ملكهم ليختار لنفسه منهن زوجة جديدة قبل أى مخلوق آخر

ولكن هذا الشعب قد انقرض الآن واندمج فى القبائل العربية بعد الفتح الإسلامى ، وأصبح سكان هذا الإقليم من العرب قبائل أولاد على

والقسم الساحلى هو شريط رفيع من الأرض المتموجة الصالحة للزراعة . ويتراوح عرضه من الساحل جنوباً بين ٢٠ و ٥٠ كيلو متر ، ويتسع من جهة الشرق — العامرية — ثم يأخذ فى الضيق عند ما يتجه غرباً ، وينتهى تقريباً عند السلوم حيث تقترب هضبة ليبيا الكبرى من الشاطئ وتدخل فى مياه البحر

منظر لجانب من ساحل الصحراء الغربية بالقرب من المزارات الرومانية

أما أسماء التلال ورؤوس الخلجان فلها تاريخ أثرى قديم ، ولا يزال العربان يعثرون على آثار ذات قيمة وخاصة من العصر الرومانى . ونذكر من أسماء هذه التلال بعضها وهى : رأس الكناس (وكانت تعرف برأس جرموم) ؛ ومرسى مطروح وكانت تعرف برانيوم ؛ وميناء التجيلة وكانت تعرف بجازيس ، وميناء جرجوب وكانت تعرف بأبيس ، والسلوم وكانت تعرف بارانوس ، ورأس اللج فى طرابلس وكانت تعرف بأردينس ، وميناء البردى وكانت تعرف بتراجنا

خطوط الأمطار

تعد مسألة هطول الأمطار فى هذا الإقليم من المسائل العجيبة حقاً ، فبينما يهطل المطر بغزارة فى مكان ما ، إذ تراه ينحبس عن مكان آخر قريب من الأول جداً ؛ غير أنه يهطل بصفة دائمة فى مناطق معلومة مبشرة على الشاطئ يعرفها العرب أنفسهم ؛ ويستمر من ثلاثة أشهر إلى أربعة فى السنة ؛ تبدأ من أكتوبر أو نوفمبر وتنتهى فى شهر إبريل ؛ وفى بعض الأحيان يهطل المطر مرة واحدة وذلك فى شهر مايو ، ويسميه العرب « مطر البطيخ »

ويعد نزول الأمطار فى الواحات كواحة سيوه مثلاً من الأمور النادرة ؛ وإذا استمر سقوطها قليلاً سبب هدم منازل الواحة المصنوعة من « الجالوص » وقد حدث ذلك فى سنة ١٩١٩ م ؛ وكذلك فى شهر إبريل سنة ١٩٣٧ م ؛ واستمر هطول الأمطار

يومين كاملين ؛ فأوقع ضرراً بالمنازل وهدمها ، وبقى السكان هناك مدة بلا مأوى

سرادب المياه على الساحل

تنتشر فى المنطقة الساحلية خزانات المياه الرومانية ، وهى محفورة فى الصخر بنظام هندسى عجيب يمنع تسرب المياه منها ، وتبقى فيها لمدة سنين ، وكان الرومان يستعملونها قديماً ولا يزال العربان يستعملونها إلى الآن ؛ وبعض هذه الخزانات كبير الحجم يتسع فى بعض الأحيان لآلاف من الأطنان تكفى لأعوام طويلة كالخزانات الموجودة فى العامرية ومطروح والسلوم ؛ وتهتم الحكومة بتنظيف هذه الخزانات وإصلاحها وطلائها بالأسمنت ؛ وتوجد المياه كذلك فى بعض آبار « جامات » على الشاطئ ويسميها العرب « بالثوانى » وهى أكثر ما توجد فى المناطق الرملية

وتوجد الدوادير والزوايا بكثرة حول المناطق الغنية بالمياه وخاصة ما كان منها قريباً إلى الشاطئ . ويزرع السكان حولها الزيتون والتين والعنب وبعض أصناف الخضر

سكة مربوط الحربية

هى إحدى منشئات الخديو السابق ، وكانت تمتد قديماً إلى بلدة فوكه على بعد ١٢٠ كيلو من الإسكندرية . ثم نزعت قضبانها فى أثناء الحرب العظمى سنة ١٩١٦ لأغراض حربية وانتهت عند بلدة الضبعة على بعد ١٠٢ ميل من الإسكندرية

أما الآن فقد تم مدها إلى مرسى مطروح أى إلى مسافة ٣١٢ كيلو متراً من الإسكندرية ولهذه السكة تاريخ غريب : فقد كان الخديو السابق يزمع مدها إلى السلوم على حدود مصر — طرابلس ، أى نحو ٥١٤ كيلو متراً من الإسكندرية . وكان غرضه من ذلك أن تقرب السفر إلى أوربا يومين ، وكان يرمى إلى مدّ فرع آخر منها من مرسى مطروح إلى سيوة أى مسافة ٣٠٠ كيلو متراً أخرى وذلك لنقل محصول البلح والفواكه واستغلال أملاكه الكثيرة التى يملكها فى هذه الواحة . ويتضح لمن ينعم النظر فى هذا المشروع أنه لا يأتى بالفائدة المرجوة منه ولا يسد تكاليفه الباهظة . ولقد أدى ذلك إلى تدخل المعتمد البريطانى فى أمره وشرائه باسم الحكومة المصرية تفادياً من استخدامه لأغراض حربية

سكان الساحل

يقطن المنطقة الساحلية قبائل من العربان الرحل تعرف بقبائل أولاد على . وكلهم من البدو الذين يعيشون عيشة غير مستقرة فيزرعون الشعير والحنطة على الأمطار ويشتغلون فى وقت الجفاف بنقل حاصلات بلح الواحات إلى الساحل ويعودون بالحبوب والسكر والشاى وسائر الحاجيات إلى الواحات ثانية

والبدوى بطبيعته يفضل السير فى الدروب المطروقة الظاهرة للوصول إلى مقصده ، وهو لا يفكر فى اختراق أرض مجهولة . ولكن إذا اتفق أن أمطرت السماء وغمرت بعض الأراضى ونبتت فيها المرعى فسرعان ما يتجه إليها البدو من كل الجهات لترعى مواشيهم ؛ ورعاية الماشية تتطلب السير فى مختلف أراضى المنطقة ، وبهذه الوسيلة يسير البدوى فيها فيتعرف على دقائقها جيداً . وللعربى خاصية حفظ الأشياء والمناظر الطبيعية والعلامات الأرضية فهى تنطبع فى ذهنه لأول وهلة . على أن هذه الخاصية لا تتوفر لجميع البدو ، بل هى تتوافر عند قليلين منهم يعرفون بالأدلاء . وللدليل البدوى مهارة عجيبة مدهشة فى تعرف الطرق وسهولة ارتيادها وتمييز الجبال والتلال والقدرة على السير ليلاً فى أشد الليالى حلكة وظلاماً

قبائل الصحراء الغربية

يسكن صحراء ليبيا من النيل إلى جالو والكفرة فريقان من البدو : السعادى والمرابطون، وهم جميعاً من نسل «سعدى». وهم ثلاثة فروع :

سعدى . وقد أنجبت جبريل ورغوث وعقار . ومن ذرية جبريل : العوانير والعريبات والمغاربة والجوازى . ومن ذرية رغوث : عبيد والعرفه والفوايد . ومن ذرية عقار : على والجرابى والهنادى وبنى عونة والجيمات ، ومن ذرية على : أولاد على الأبيض وعلى الأحمر والسنة . وأولاد على الأبيض هم : أولاد والسنافره والمزايم والأفراد . وأولاد على الأحمر هم : التنيشات والعشيبات والكيلات . والسنه هم : النزوة ، والقطيفة ، والمحاقيظ ، والحجنة

ويسكن أولاد على الصحراء الغربية .

أما «المرابطون» فهم أقدم من السعادى ولكنهم متفرقون وكل قبيلة منهم فى حمى قبيلة من السعادى ، ولعل ذلك يرجع إلى أن السعادى جاؤا البلاد فاتحين ؛ ويعرف المرابطون أحياناً بالصدقان أو الأصدقاء . وأهم قبائلهم : زوى ، والمجابرة ، والمنفة ، والموالك ، والشواعر ، والجرارة ، والقطعان ، والحونة والجبابل ، والتراكى ، والشهيبات والفواخر ، وترهونه ، والعوامة والصوانقة الخ ...

وهؤلاء موزعون فى الصحراء وفى حمى السعادى .

وكل قبيلة منهم مسؤولة عن الدفاع عمن تحميهم من المرابطين .

ويقدر عربان هذه الصحراء بنحو ٥٥ ألفا . وهم جميعاً معروفون بشدة الولاء والإخلاص لجلالة الملك وآل بيته الكريم لما لا قوه من عطف محمد على باشا الكبير رأس الأسرة العلوية ، وما منحه إياهم من امتيازات لا يزالون يذكرونها ، ويفخرون بها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل . ؟

عبد الله عنيب

ملحوظة : أكثر ما ورد فى هذا المقال والذى قبله من البيانات المفيدة مأخوذ عما دونه صديقنا الضابط رفعت الجوهرى مأمور مهمى مطروح عن الصحراء الغربية .